الروض الهتون

فى اخبار مكناسة الزيتون

للمؤرخ العلامة المحقق

ابى عبد الله محمد بن احمد بن محمد بن غازي العثماني

المكناسي

طبع بعد الاعتناء بتصحيحه

سنة ١٣٧١ — ١٩٥٢

المطبعة الاقتصادية

شارع المامونية بالرباط — تلفون : ٤٨-٣٩

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله

الحمد لله الذي حبب الاوطان ، للظاعنين من أهلهـا والقطان ، والصلاة والتسليم علي سيدنا محمد ذي الشيم الحسان ، وعلى ءاله وصحبه أولى البر والصبر والتقى والاحسان وبعد فهذا روض هتون ، في أخبار مكناسة الزيتون ، مسقط رأسي ، ومحل انسي

بلاد بها نيطت علي تمـائمي ❁ وأول أرض مس جلدي ترابها

وانما عرف هذا البلد بهذه الاضافة ليمتاز عن مـكناسة تازا وذلك ان من قبـائل زناتة قبيلا يقال له مكناسة، منهم فخذ بتازا شرقاً من مدينة فاس بينهما نحو سبعة برد، ومنهم فخذثان بهذا الموضع المراد غرباً من مدينة فاس وبينها نحو ثلاثة برد ونصف بريد فتميزت احداهما عن الاخرى بما اضيفت اليه ومكناسة الزيتون لها واد يسمى في القديم فلفلا ويعرف الآن بابي عمـائر وفيه يقول شيخ شيوخنـا الاستاذ ابو عبد الله ابن جابر الغساني في ارجوزته المسماة بنزهة الناظر لابن جابر

فلـن ترى في سـائر العمائر ❁ مثـل محـاسن أبي عمـائر

يمر النهر المذكور من قبلة الى جوف قريباً من سورها ، اصله والله تعلى أعلم من جبل بني فازاز ، ومـكناسة هذه بلدة خصيبة ذات عيون وأنهار وثمار كثيرة وأشجار وهي كما وصفها ابن الخطيب اذ يقول :

حييت يا مكناسة الزيتون ❁ قد صح عذر النـاظر المفتون
طيب الهواء وصحة الماء الذي ❁ يجري بها وسلامة المخزون
وكفاك شاهد حسنها وجمالها ❁ أن أوثرت بالقرب من زرهون
جبل تضاحكت البروق بجوه ❁ وجرت عذاب مياهه بعيون
فـكانـمـا هو بربري نافذ ❁ في لوحه ، والتين والزيتون

وقال الاستاذ ابن جابر الغساني

لا تنكرن الحسن من مكناسة ❁ فالحسن لم يبرح بها معروفا
ولئن محت أيدي الزمان رسومها ❁ فلربما ابقت هناك حروفا

وهى كثيرة الفواكه والمزارع والمسارح فيها انواع كثيرة من الهلالج المسمى بغرب الاندلس: العبقر، ويسمونه البرقوق لا يكاد يوجد مثله في غيرها من البلاد كثرة وطيباً وغضارة خصت بذلك . وفيها المشمش المسمى بالاندلس: البرقوق، وفيها انواع من التفاح طيبة من جملتها نوع يسمى الطرابلسى حلو عطر يعقد مرتين فى العام في أكثر الاحوال ويسمون الآخر منه العودة وهو عطر جداً أصغر جرماً من البطن الاول ، وفيها أنواع كثيرة من الاجاص ، وفيها سفرجل كثير طيب حلو وحامض ويركب التفاح فيه فيجود ويركب ايضاً فيه الاجاص ، وفيها انواع من الرمان كثيرة طيبة كالسفري والراهبي وميمونة والنعيمي والاخضر ، ورمانها القديم صنف يقال له القابسي وهو جليل شديد الحلاوة ذونوى وفيها الجوز والخوخ ، وفيها من أنواع العنب الابيض والاسود كثير طيب يطبخ ولازبب ، وفيها من التين أنواع منها الشعري كشعري اشبيلية ومنها نوع يقال له السبتى وهو أبيض للطول رقيق البشرة وهما نوعان طيبان اذا اكلا اخضرين ، ومنها نوع جليل ابيض للخضرة مستدير يقال له الانبضار يشرح فتاتى شريحته في غاية الطيب وغير ذلك من انواع التين كالاشكوز والشبلى والحمراء والغدان والحافر والنقال وغيرها ويجلب اليها البلوط الجليل الحلو واما الزيتون فهو فيها كثير جداً ولذلك اضيفت اليه واشتهرت به ولما ولى محمد بن عبد الله بن واجاج في أول أيام الموحدين بلاد المغرب سيفاً وعملا غرس بها وبفاس وبالمقرمدة وبرباط تازا بحيرات اكثر غراساتها الزيتون فكان حب زيتون بحيرة مكناسة يباع عام الحمل بخمسة وثلاثين الف دينار ونحوها وحب زيتون بحيرة فاس بخمسين الف دينار ونحوها وحب زيتون بحيرة تازا بخمسة وعشرين الف دينار ونحوها وذلك قبل ان يستولى على المغرب تخريب بني مرين عند اختلال امر الموحدين، وفي بحيرتى فاس ومكناسة أنواع كثيرة من الفواكه الصيفية والخريفية والورد مما كان له غلة جليلة ، وفيها أرض بيضاء للخضر والكتان تكترى بمال جسيم ، وغراسات مكناسة كلها سقي الا ما كان منها بحكم النادر ، وقد باد زيتونها لهذا العهد الا قليلا لما توالى عليها من الفتن والبقاء لله وحده وكانت البلاد قبل فتحها

ديار كفر مجوس ونصارى وحاضرتها اذ ذاك مدينة يقال لها وليلى سميت باسم ملكها وليلي وءاثارها عظيمة باقية لهذا العهد بارض خيبر من ناحية جبل زرهون تعرف اليوم بقصر فرعون قيل ولم تكن مكناسة في القديم ممدنة وكانت حوائر كثيرة متفرقة وهى تاورا وبنو عطوش وبنو برنوس وبنو شلوش وبنو موسى وهذه كلها على الضفة الغربية من وادى فلفل المذكور الا تاورا فانها بضفتيها الغربية والشرقية، وغراساتها كلها متنظمة متصل بعضها ببعض لافاصل بينها وتاورا اقرب الحوائر الى المدينة من جهة باب البراذعيين، ومن حوائرها ايضاً بنو زياد وتقع غرباً من الحوائر المذكورة وليست على الوادي المذكور لكن لها منه جدول من نوع ساقية طويلة المسافة صعبة المجرى، ومن حوائرها أيضاً ورزيغة يذكر أن أصل أهلها روم وتقع شرقاً من نهر فلفل وبينها مسافة ،ولورزيغة حارتان قريبتان: منها بنو مروان وبنو غفجوم،وبنو مروان اقرب اليها وماؤها من وادى ويسلن من اودية مكناسة وبها عيون وكانت ورزيغة مخصوصة بالامن يسكن اهلها الخيمات بالجنات فلا يلحق أحدهم خوف ولا يتوقعه الا من الاسد خاصة، وبني زياد ايضاً عيون يسقون بها بعض املاكهم ويسقون بعضها بالساقية المخرجة من وادي فلفل المذكور وبعضها بعل وكان العنب البعل بها في غاية من الطيب بموضع هنالك يقال له امتروىٔ اليه ينسب العنب المتروءي هنالك قال الاستاذ ابو عبد الله بن جابر في نزهة الناظر بعد ما ذكر اصناف الاعناب التي بمكناسة

لكنني اقول دون سوء ❁ ما فاق الاعناب سوى المتروءي

وهو عنب أبيض شديد الحلاوة ولا سيما الانثى منه ويذكر أنه من قوته لايستحيل خمراً الاعند اعتدال الزمان ، ومن غلوهم فيه انهم يقولون انه يستصبح بخمره وهنالك قرية كان يقال لها قرية الاندلس كانها من عمل بني زياد سكنها على قديم الزمان قوم أندلسيون وتناسلوا بها وأقاموا دهراً لم تتغير ألسنتهم ولا أشكالهم الا من كان منهم كثير الامتزاج باهل البلاد فانه تغير لسانه وكانت لهم بالقرية المذكور كرمات بعل في أرض رملة حمراء (كذا قيل) ، وهذه القرية والله تعالى أعلم هى المسماة في هذه الاعصر تلاجدوت وبها جرى المثل السائر دار الكرامة ياتلاجدوت ، ومنها كان الشيخ أبو الحسن علي بن يوسف التلاجدوتي المدعو بسيدي علي بن يشوا

وهو من شيوخ شيخنا الفقيه الحافظ سيدي أبي عبد الله محمد القوري والخطيب البليغ المصقع سيدي ابي العباس احمد بن سعيد الحباك الغفجميسي ، وكلامهم اليوم يتكلمون برطانة البربر المفرطة في العجمة وكانت حارة تاورا التي هي أقرب الحوائر الى المدينة الآن يشقها وادي فلفل ديارها على ضفتيه شرقاً وغربا والغراسات بها وبسائر الحوائر متصلة بالديار ، وبتاورا أرحي كثيرة كان أكثرها يحتوي على أربعة أحجار وكان من جملتها بيت واحد للزغابشة يحتوي على خمسة أحجار وكان فيها حمامان اثنان احدهما منسوب للزغابشة والثاني المختص يعرف بحمام أبي الخيار بازائه عين كبيرة تنسب كذلك لابي الخيار ماؤها عذب معين صاف تسقي بها طائفة كثيرة من أملاك تاورا ومن أملاك من تحتها وكانت حارة تاورا تنقسم اقساماً قسم يقال له بنو عيسى ديارهم بالضفة الغربية من الوادي يذكر أنهم أصل بني زغبوش لكن لا نعلم صحة ذلك غير أنهم كانوا يجدون في بعض العقود القديمة نسبتهم الى عيسى بلفظ فلان بن فلان العيسوي ويستدلون بذلك على أن بني زغبوش من بني عيسى والله تعلى أعلم وقسم بالضفة المذكورة قبلة من بني عيسى يقال له بنو يونس ، ويسمى ايضاً هذا القسم تاورا الفوقية وبهذا القسم كان المسجد الجامع وبين هذين القسمين موضع عال جداً يعرف بالجهنمية ، وقسم بالضفة المذكورة يقال له فاس الصغيرة كانها سميت بذلك لاختراق الماء خلالها كمدينة فاس وبالضفة الشرقية من الوادي قسم يقال له الجنان الصغير وقسم يسمى بني ابي نواس ، وقسم يسمى حارة بني زغبوش وحارة الزغابشة، وثم كانت ديار بين بني محمد بن حماد وغيرهم وكان ببني زياد حمام وببني مروان حمام يعمران وكان ببني موسى حمام تعطل قبلها والله تعلى اعلم وكانت هذه المواضع كلها في غاية من الخصب وكثرة المياه والاشجار وكان أهلها امنين مطمئنين في عيش رغد ونعمة تامة منذ ملك امراء المسلمين بنو تاشفين بلاد المغرب واخمد الله تعلى بسيوفهم نار الفتنة البربرية فانقطعت مطامع رءوس النفاق من بربر المغرب ، قيل ولم يكن لهذه الحوائر قديماً مدينة مسورة وكان واليها يسكن قصراً ادركه القدماء خرابا يعرف بقصر تؤزجين ولعل جيمه معقودة وهو على ربوة من الارض شرقاً من بني زياد وغربا من وادي فلفل وجوفاً من المدينة الآن فلما ظهر أمر الموحدين احدث المرابطون على الوادي المذكور غربا منه حصناً سموه

تاجدارت بالجيم المعقودة وكذلك بقى اسمه وتفسير هذا اللفظ المحلة او المجتمع بلسان البربر هكذا قيل وهذا الحصن هو المدينة الموجودة اليوم لهذا العهد فلما أخذوا في بنائها اجتهدوا فيه وأعجلهم الامر حتى احتاجوا على مايحكى الى اقامة شقة من سوره بالاهوية المتخذة من الدوم لادخار الاطعمة ويسمى واحدها بلسان البربر اسكل وملؤوها ترابا وقاتلوا دونها حتى اكملوا البناء بعد ذلك وفي القطر المغربي من أبراج سورها برج مبني بالحجر والجير بناء محكما يسمى برج ليلة سمى بذلك لانه بنى من ليلته فيما زعموا ونقل الوالى يدر بن وجلوط بالجيم المعقودة الى المدينة المذكورة وجوه الناس واغنياءهم ولم يترك من الاقوات شيئاً الا نقله اليها وترك جمهور الناس فى مواضعهم فأول غارة شنها الموحدون على تلك الارض بسوق الغبار يوم الاحد وذلك انه لما وضعت هذه الموضوعات على الضفة المذكورة من التفرق كانت لهم سوق غبار بازاء قصر توزجين المتقدم الذكر وهو الذي يسمى بالسور القديم بالراء او بالسوق القديم بالقاف كما يجري على ألسنة الناس اليوم ومسجد الحصن المذكور وصومعته لم يزالا قائمين لهذا العهد وكان أهل الحصن وأهل الحوائر يجتمعون الى تلك السوق يوم كل أحد ، فبينما هم يوم احد قد اجتمعوا وكملوا بالسوق المذكورة وهي بارض مرتفعة اذ أشرفوا على خيل مقبلة اليهم فى زى المرابطين : اللثم والغفائر القرمزية والمهامز التاشفينية والسيوف المحلاة والعمائم ذوات الذوائب فلما رأى القوم هذا الزي قالوا: تقوية السلطان جاءتنا وسارعوا للقائهم فرحين بهم وهبطوا عن ءاخرهم فلماخرجوا عن منع الحصن والسوق حسر الفرسان اللثم ونادوا : أبابا يا المهدى وكان ذلك شعارهم وأحالوا السيوف عليهم ولم ينج واحد منهم فيما ذكر وكانوا ءالافاً رحمهم الله ومازال الناس لهذا العهد يتحدثون ان المقابر التي عند باب مسجد السوق القديم هى مقابر شهداء فلعلهم هم والله تعلى أعلم، وكان الموحدون حينئذيسمون الناس المجسمين ويقاتلونهم قتال كفر وكان الناس يسمونهم خوارج ولم تزل الغارات تشن عليهم فيقتل الرجال ويسبى النساء والذرية وتستباح الاموال ، والتضييق يتوالى والمكائد تدبر والحيل تدار حتى ضاق ذرع الناس بكثرة الوقائع عليهم ، ومن الاخبار التي كانت مشتهرة عند اهل الوطن انه كان باحواز تاورا شجرة كبيرة من النشم الاسود المسمى بالتغصاص باشمام الصادين زايين وربما يكتبه المتفاصحون

التقصاص بقاف وصادين فبينا الناس قد انبسطوا لتدبير أشغالهم ومعايشهم اذ فاجأتهم الخيل وأحاطت بهم فلجؤا الى تلك النشمة وظنوا النجاة فيها فتعلق بها منهم خلق كثير وضم الموحدون الحطب لتلك الشجرة واضرموا النيران حولها فسقط كل من كان فيها واحترقوا عن ءاخرهم واحترقت النشمة وبقيت منها بقية مدة من الزمان وكانت عند أهل الاوطان من جملة مواعظ تلك الفتنة فلما فتحت فاس للموحدين عام اربعين وخمسمائة انتقلوا الى مكناسة وبينها ما يقرب من اربعين ميلا وانزلوا عليها وخندقوا عليها خنادق زعموا انها سبعة خنادق ليحصنوا بها محلتهم خوفاً من معرة أهل البلد لما علموا من جرأة اهل البلد وشجاعة عاملها يدر بن ولجوط (وذكر ابو زيد ابن خلدون) فى كتاب العبر، وديوان المبتدا والخبر، في ايام العرب والعجم والبربر، وغيرهم من ذوي السلطان الاكبر: أن عبد المومن بن علي لما فتح فاس ترك بعض عماله محاصراً لمكناسة وانصرف هو الى حضرة مراكش ه فحاصروا مدينة مكناسة سنين وأشهراً قيل ان السنين سبع وقيل أربع ولاخلاف في أربع واشهر وانما الخلاف في الزائد عليها وكان بعض من يغلوا في مدة الحصار يقول سبع سنين وسبعة اشهر وسبعة ايام والله تعلى اعلم، وحين نزل الموحدون مدينة فاس كان بها من أهل تاورا أبو محمد عبد الله بن محمد بن حماد بن محمد بن زغبوش يقرأ وسنه يومئذ نحو خمس وعشرين سنة فتشوق أحد الايام للاشراف على محلة الموحدين فخرج من مجلس القراءة وسط النهار وقد انصرف الناس الى ديارهم والاسوار خالية الا من حراسها فطلع السور ليطلع منه عليهم فبينا هو يمشي على السور حدثته نفسه بالهبوط اليهم فارتاد موضعاً خالياً خفياً عن الحرس وربط عمامته في احدى شرافات السور وتقلد خريطة كتبه وتعلق بالعمامة وكانت ضعيفة فلما ثقلت انقطعت وسقط في الارض واعتلت احدى قدميه وتسارع اليه الموحدون ورفعوه فى درقة ووضعوه بين يدي عبد المومن بن علي واكرمه الموحدون وأحسنوا اليه وكتب له عبد المومن صكا بتسويغ ماله ومال أبيه وأقام معهم يظعن لظعنهم ويقيم لاقامتهم مبروراً لديهم عزيزاً عليهم وكانوا يلحظون من يمت اليهم بسابقة أو هجرة فلما نزلوا مكناسة ظهر عبد الله بن زغبوش المذكور بمحلتهم واتصل ذلك بالوالى يدر بن ولجوط فقبض على أبيه محمد بن حماد في سبعة من قرابته او مع سبعة منهم، وكان

محمد هذا فقيهاً خيراً قرأ بقرطبة وبغيرهـا وصحب جلة من أهل زمانه وثقفهم يدرين ولجوط في دار وجعل عليهم حراساً ولم يمنع عنهم الزوار واشتد الحصار وتمادى وهم مثقفون الى ان اصبحوا مقتولين ذبحاً وفي الدار نقب نفذ السور ، فقيل انهم راسلوا عبد الله المذكور في أن ياخذ لهم عهداً او يتحيلوا في الخروج ، وقيل ان جماعة من الموحدين أصبحوا في ذلك اليوم قريباً من النقب ينتظرون خروجهم فقيل حتى يئسوا وقيل حتى علموا بقتلهم وقيل ان ذلك النقب كان من فعل الوالي بعد قتلهم ليقيم بذلك عند الناس حجته في قتلهم ، وذكر بعض الناس ان هذه الرواية أقرب من الاولى لان والد عبد الله لم يكن راضياً عنه في هجرته اليهم ، وزعم أهل الرواية الاولى ان سبب اتصال عزمهم على الخروج بالوالي كان ان احدهم كانت زوجه من قوم كانوا عدواً لهم فزارته فعرفها بعزيمتهم ثقة منه بها فأخبرت بذلك أخاها رجاء أن يخرج معهم ويخلص بنفسه وحضته على ذلك اشفاقاً منها عليه فثارت عداوته وأمكنته الفرصة فيهم فوشى بهم الى الوالي يدرين ولجوط فنفذ فيهم حكم الله سبحانه ، حكى انه دخل عندهم أمس اليوم الذي أصبحوا فيه مقتولين شاب من أخوال أحدهم من بني علالة وكان حسن الصوت حافظاً لكتاب الله العزيز مجيداً لقراءته وكانت عادته اذا دخل عليهم يؤنسهم بقراءة القرءان فسألوه في ذلك اليوم قراءة عشر فقرأ اقتربت الساعة فكان ماذكر من حكم الله فيهم وكان أمر الله قدراً مقدوراً ، وبقي الجيش محاصراً للمدينة وصاحب المدينة يبالغ في نكاية الموحدين والنيل منهم والخنادق لاتغني عن محلتهم شيئاً ، ذكر أنهم حفروا اول خندق قريباً من المدينة فضيق عليهم المرابطون ومن معهم في المدينة حتى رجعوا وراءهم وخندقوا ءاخر ولم يزالوا كذلك يضيقون عليهم ويرجعون وراءهم ويخندقون حتى اكملوا سبعة وامر الموحدين يستوسق وينتشر ويزيد ظهوراً والقبائل تتابعهم وترد عليهم افواجاً والفتوح تتناسق وسكان الجبال ينزلون اليهم من صياصيها مذعنين حتى ان من قطر مكناسة ونواحيها جبلا كثيراً مانعاً خصيباً يقال له زرهون وفيه من الخلق امة كثيرة لا تحصى عدة ارسلوا بيعتهم مع جماعة منهم الى عبد المومن بن علي وهو يومئذ بين الصخرتين من أحواز تلمسان وجرأوا الموحدين على دخول المغرب وأعانوهم على محاصرة مدينة مكناسة فكانوا ابداً مبغضين لاهل تلك البلاد وكانوا

بسبب سبقهم احراراً من المغارم كتب لهم بذلك صكوكا كانت بايديهم ولم يتعرض لاموالهم كما فعل بالاملاك التي اخذت عنوة لكنهم كلفوا اخراً من الكلف الطارئة ما لم يكن لهم بحمله طاقة ولم ينفعهم بدارهم ، وكان ظلمة العمال يسمون هذا الجبل جبل الذهب ويذكر أن أصل أهله روم وباسفله على اثنى عشر ميلا من مكناسة بموضع يقال له تازجا أثر بناء عتيق ضخم يسمى قصر فرعون وكان ثم سوق غبار يجتمع فيها يوم الاربعاء وتنسب هذه السوق لوليلى ويذكر ان وليلي كان ملك الروم وكانت له هناك تلك المدينة وهي كانت حاضرة تلك البلاد، كذا ذكر بعض المؤرخين ، ولما استولى الفتح على المغرب شمل مدينة وليلى وغيرها وبها نزل السيد الطاهر النقي التقي ادريس بن عبد الله رضي الله تعلى عنه على شيخ اوربة حسبما هو مذكور في تاريخه فلما رأى الموحدون انقياد الناس اليهم وتوالي الفتوح عليهم احتقروا حصن مكناسة واستطالوا مدة اقامة الجيش عليه وظنوا بصاحب الجيش تقصيراً فبعث عبد المومن بن علي أحد عظماء الموحدين ليطلع على ذلك فوافى الجيش وعاتب أميره واستنقص جده وحقر الحصن وأميره فأرسل أمير الجيش الى أمير المدينة يدر بن ولجوط يخبره بما لقي من الواصل اليه وسأل منه عملا تقوم له به الحجة عليه فبينما الموحدون قد اجتمعوا للقتال وهم يتفاوضون في كيفيته ويتواصون بالعزم والصبر اذا بباب المدينة قد فتح لعشرة من الفرسان ودفعوا كانهم الطير سرعة او الرعد صولة وضربوا في الجيش وتبعهم عشرة بعد عشرة الى ان كملوا خمسين ونالوا من جيش الموحدين نيلا عظيما فرأى الواصل من اقدامهم وجرأتهم وقوة شوكتهم وشدة باسهم ماهاله فقال بلسان المصامدة (ذأ امطيرايا) ومعناه هذا عجب وظهر عذر أمير الجيش فيما ظن به من التقصير وتمادى الحصار واستد التضييق وفنيت الاقوات واضطر الناس الى اكل خسيس الحيوان حتى عدم كل ذلك وهلك الناس قتلا وجوعاً وفتحت البلاد للموحدين بالمغرب والاندلس طوعاً وعنوة ومات الامير تاشفين بن أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين ملك المرابطين بساحل تلمسان على الضفة المشهورة وقد ذكرها ابن خلدون وغيره ولم يبق للموحدين مناو ولامنازع ويئس يدر بن ولجوط من الفتح والنصر ولم يكن له بالضبط طاقة فطلب النجاة بنفسه وأهله ومن بقي من فرسانه خاصة وأسلم المدينة ومن فيها من بقايا المنحصرين للردى وخرج في خمسين فارساً على

ماذكر ودخل الموحدون المدينة فسفكوا الدماء وسبوا النساء والذرية واستباحوا الاموال وتمادوا على ذلك يوماً كاملا ونادى مناديهم في ءاخر النهار برفع السيف وعظم البلاء في ذلك اليوم على الناس وكان ذلك في اول عام خمسة وأربعين وخمسمائة وهى ثانية السنة التى توفى فيها القاضي ابو الفضل عياض بمراكش وثالثة السنة التى مات فيها ابو بكر بن العربي بخارج فاس مسموماً وهو ابو يحيى المشهور مدفنه هنالك . وكان نزول الموحدين على مكناسة فى القول الصحيح آخر عام أربعين فمدة الحصار على هذا أربع سنين واشهر وبقيت المدينة خالية الا من فل الموت قتلا وجوعاً وتفرق ذلك الفل وانتثر عقد نظام الناس وجلا بعضهم واشتغل بعضهم بطلب المعايش وتعلقوا بالحرف والصنائع وتملك الموحدون البلاد والاموال وصار الناس عماراً في املاكهم يوخذ منهم نصف الفواكه الصيفية والخريفية وثلثا غلة الزيتون وكانت العادة اذا بدا صلاح الغلات يباع حظ المخزن منها حارة فحارة وكان المشترون لها قوماً لاخلاق لهم يقال لهم القشاشون فتستطيل ايديهم على حظوظ الرعية ويضيقون عليهم حتى يبيعوا منهم حظوظهم بثمن بخس أو يشتروا منهم حظ المخزن غالياً فكان الناس من ذلك في جهد عظيم ومحنة شديدة لايتجرأ احدهم ان يقطف من ملكه حبة واحدة ثم قوطعوا بعد ذلك على الفواكه وخفف عليهم في شركة الزيتون وكان السبب فى المقاطعة والتخفيف فرار الناس عنها بسبب الجور وتركها حتى تبورت ، فصلحت بسبب المقاطعة أحوال الناس ونمت اموالهم وامتدوا في الاحياء والغراسات وعمرت المدينة والحوائز والبسائط ونفقت الاسواق وقويت التجارة وصار المسافرون ينزلون بالمدينة ويبيعون ويشترون وكانت فى المدينة بداوة ثم تمدنت واكتسبت حضارة وزيد بعد الستمائة فى جامعها الاكبر زيادة ظاهرة وجلب اليها الماء على ستة أميال من عين طيبة الماء عجيبة القدر بموضع يقال لها تاجما واجرى الماء الى الباب الجوفى من ابواب الجامع وسمى باب الحفاة وكان متصلا بالباب الذي يسمى لهذا العهد باب الزرارعيين وبنيت قريباً من هذا الجامع دار للوضوء حفيلة على مثال دار الوضوء بفاس وهذا كله فى ايام الموحدين وكان بهذه المدينة فى ايام الموحدين ثلاث حمامات البالى والجديد والصغير وهى باقية لهذا العهد وكان احدث فيها ابو زكرياء يحيى بن غنصالبة المهاجر المعروف بابن اخت الفنش في العشر الثانية من القرن السابع حماماً كبيراً حفيلا

محكما فجاء في غاية الاتقان، وكان أبو زكرياء هذا فنشياً هاجر الى سلطان الموحدين واستوطن مكناسة مظهراً لدين الاسلام وكان يسكن بها في دار كبيرة بشرقي الجامع الاعظم مقابلة لاحد أبوابه تنسب لعلي بن ابي بكر احد حفاظ الموحدين كان قد ولى العمل بها وكان أبو زكرياء هذا قائد فرسان يتصرف في ردع شرار البربر الرحالين وكان في زى الموحدين فاعلا للخير محباً في أهله وله في احداث هذا الحمام مناقب اشتهرت عنه من ارضائه اصحاب الديار التي اشتراها لذلك في أثمانها وغير ذلك وعمر هذا الحمام ماشاء الله تعلى ثم خرب منذ زمان وءاثاره باقية لهذا العهد عند سوق الغزل منها ، وفيه يقول الاستاذ ابو عبد الله بن جابر في رجزه المسمى بنزهة الناظر

وانما الحمام كان الفنش ❊ ذاك الذي اذ كان كان العيش

وقد ذاكرت بذلك يوماً ونحن بها شيخنا الخطيب البليغ ابا العباس احمد بن سعيد الغفجميسى فقال يعارضه من غير كبير روية

هناك حمام بناه الفنش ❊ وهو الذي قد كان فيه الفحش
من الرجال ومن النسوان ❊ بكشف أعضاء لهم حسان
لاجل هذا نابه الخراب ❊ فلم يكن بعد به طياب
بل بان منه الماء والاكواب ❊ فماله في جوفها انسكاب
وصار مأوى البوم والوطواط ❊ من غير درهم ولا قيراط
والعنكبوت عمرت أركانه ❊ بنسج أرديتها المهانه
كذاك عقبى كل شكل زاه ❊ حيد به عن طاعة الالاه

وقد كان الشيخ احمد اللحيانى الورتاجنى أيام قيامه بمكناسة احدث بها حماماً حول داره ودثر بعده ثم عمر لهذا العهد ينسب اليه يقال له حمام المرينى وهو الآن رابع حماماتها ويقال بلغت عمارتها الى ان كان بها اربع مائة مسجد قال الاستاذ ابن جابر ❊ وحول كل مسجد سقاية ❊ فالله تعلى اعلم ' (وللمدينة ستة ابواب) باب البراذعيين وباب المشاورين وبمقربة منه هوايمي اى تجمي ودار الاشراف وجامع الخطبة القديمة ويعرف لهذا العهد بجامع النجارين ، وباب عيسى وباب القلعة وكان يسمى بهذا الاسم قبل ان تبنى هنالك القصبة على مايظهر من كلام بعضهم والله تعلى اعلم وباب اقورنج وباب دردورة وربما قيل له باب الصفا وكانت اقطارها سبعة اسباع

زرهون وبنو كلثوم وبنو ورتنكسين وولهاصة وبنو دنسون وابي أرجان بالجيم المعقودة وبنو أبي السمح ونمت هذه البلاد وعمرت ولم تزل في نمو وقود حتى انتهت مجابيها الى مئين من الآلاف ثم اختلت بجور العمال واخذت في النقص من سنة كائنة العقاب وكانت كائنة العقاب في صفر من سنة تسع وستمائة ثم تفاقم الامر عند قيام بني مرين على الموحدين وأتت الفتنة على الحوائر المذكورة كلها ودثرت ولم يبق منها الا الصوامع والجدرات العتيقة وءاخر ما خرب منها ودثر ورزيغة بعد ما كانت هذه الحوائر شاركت المدينة المذكورة بعد بنائها في كثرة العمارة والبقاء لله وحده ، نقلت اكثر ما ذكرته من تقييد وجدته للقاضي أبي الخطاب سهل بن القاسم بن عبد الله ابن محمد بن حماد بن محمد بن زغبوش وقال فيه ان حماداً هذا الذي ينسب اليه بيت بني حماد من بيوت الزغابشة كنيته أبو عيسى يلقب بالقبي لما تزوج بنى دار النارنج بحارة تاورا في أسرع زمان كان بها مجلس كبير عال محكم البناء زعموا انه بناه في اسبوع وبقيت الدار قائمة يسكنها عقبه الى أوائل المائة السابعة ومحمد بن حماد كان فقيهاً قرأ بقرطبة وبغيرها وصحب جلة من أهل زمانه وهو الذي امتحنه بدر بن والجوط مع قرابته السبعة حسبما تقدم وعبد الله بن محمد بن حماد قرأ في صغره بمدينة فاس ومنها هاجر الى الموحدين وقرأ بعد على رجال الحضره ومعهم وكانت له عناية بتآليف الامام المهدي وبما املاه خليفتهم ابو محمد عبد المومن وله في اثبات هذه الهداية موضوع استخرجه بالاستقراء من الكتاب العزيز كان شيوخ طلبة الموحدين يسألون أبداً عن هذا الكتاب ويثنون عليه وعلى واضعه الى أن ولي الشيخ ابو ابراهيم اسماعيل بن محمد بن ايوب المصالي باشمام الصاد زايا عمل مكناسة وكان متشيعاً للمهدى حافظاً لتآليفه قائماً على مذهبه من طلبة الموحدين ومن زهادهم وكان ناقداً عليهم غير راض عما ابتدعوه فألح في طلب هذا الكتاب حتى ظفر به فكان ءاخر العهد به وكان عبد الله المذكور قد استقضاه امير المومنين ابو يعقوب بن عبد المومن بن علي مدينة شاطبة وجزيرة شقر ومن ذلك الوقت استقر بشرق الاندلس بعض ذريته ولما أسن رغب في ايطان بلده فأسعفت رغبته واستوطن داره بتاورا الى ان مات سنة اربع وتسعين وخمسمائة في سن الثمانين وزعموا انه لم يدخل قط تاجدرت التي هى مدينة مكناسة انفة منه لما أصيب به والده وقرابته من المحنة التي تقدم ذكرها

وكانت من انشاء قاضيهم ابي المطرف ابن عميرة ثم بعد ذلك استخلص بنو مرين بلاد المغرب كلها واستقلوا بالامر وصلحت أحوال مدينة مكناسة ولم تعد العمارة بعد ذلك والله اعلم لحوائرها بل صارت كلها جنات وغرس الناس على ردوماتها وقد بقى من ذلك لهذا العهد صومعة بني موسى وصومعة بنى زياد ومسجد السور القديم وصومعته وحمام بنى مروان في عرصة يقال لها اليوم عرصة الحمام وسقطت صومعة تاورا لنحو ستين سنة والله تعلى اعلم (وذكر ابن خلدون) أن السلطان أبا يوسف المرينى لما فرغ من بناء البلد الجديد المسمى بفاس الجديد أمر ببناء قصبة مكناسة اه وبنى بها السلطان ابو يوسف أيضاً مدرسة الشهود التي باعلى سماطهم هناك ويقال لها مدرسة القاضى لانها كان يدرس بها القاضى أبو علي الحسن بن عطية الوانشريسى وسياتي ذكره ان شاء الله تعلى، ثم نوه بها أبو الحسن المرينى المسمى بابي الحسنات الكثير الآثار بالمغرب الاقصى والاوسط والاندلس فبنى فيها مرافق كثيرة كزاوية القورجة وزاوية باب المشاورين وغير ذلك من السقايات والقناطير في طرقاتها ونحوها ومن أجل ذلك المدرسة الجديدة وكان قدم للنظر على بنائها قاضيه على المدينة المذكورة ابا محمد عبد الله بن ابى الغمر، فحدثنى والدي رحمه الله أنه كان يسمع ممن أدرك من الشيوخ أن السلطان أبا الحسن رحمه الله تعلى لما اخبر بتمام بنائها جاء اليها ليراها فقعد على كرسى من كراسى الوضوء حول صهريجها وجيء بالرسوم المتضمنة للتنفيذات اللازمة فيها فغرقها فى الصهريج قبل ان يطالع بما فيها وأنشد

لاباس بالغالى اذا قيل حسن ❊ ليس لما قرت به العين ثمن

ولما ولى بعده ولده ابوعنان نوه بها أيضاً وتفقد احوالها وكان من جملة ذلك أن أمر بالاقتصار على عشرة من الشهود بها وعزل الباقين على كثرتهم وكان من جملة من اثبت في العشرة الذين عينهم الشيخ ابا علي الحسن بن عطية الوانشريسي رحمه الله تعلى فشق ذلك على بعض شيوخ الشهود المؤخرين لحداثة سن ابي علي المذكور فصنع ابو علي رجزاً ورفعه الى مقام السلطان ابى عنان يقول فيه

نبدأ أولا بحمد الله ❊ ونستعينه على الدواهى

ثم نوالى بالصلاة والسلام ❊ على رسول دونه كل الانام

وبعد ذا نسأل رب العالمين ❊ أن يهب النصر امير المومنين

خليفة الله أبا عنان ❁ لازال في يمن وفي أمان
ملكه الله من البلاد ❁ من سوس الاقصا الى بغداد
ويسر الحجاز والجهاد ❁ وجعل الكل له مهادا
يا أيها الخليفة المظفر ❁ دونك امري انه مفسر
عبدكم نجل عطية الحسن ❁ قد قيل لا يشهد الا ان أسن
وهو في امركم المعهود ❁ من جملة العشرة الشهود
نص عليه أمركم تعيينا ❁ وسنه قارب أربعين
مع الذى ينتسب العبد اليه ❁ من طلب العلم وبحثه عليه
على الفرائض له ارجوزه ❁ ابرز في نظامها ابريزه
ومجلس له على الرساله ❁ فكيف يرجو حاسد زواله
حاشا أمير المومنين ذاكا ❁ وعدله قد بلغ السماكا
وعلمه قد طبق الافاقا ❁ وحلمه قد جاوز العراقا
وجوده مشتهر في كل حي ❁ قصر عن ادراكه حاتم طي

ولم يزل أهلها أيام بنى مرين في خير وثروة وكانت الصاعقة نزلت أيامهم على صومعة جامعها الاعظم والناس في صلاة العصر فقتلت نحو سبعة رجال وهدت بعض أركان الصومعة ودخلت في تخوم الارض بباب بازاء الصومعة يعرف اليوم بباب الزرا رعيين فانتدب لبنائها شيخ الاسلام الفقيه ابو عمران موسى بن معطي المعروف بالعبدوسي واستنجد أهل اليسار منهم فجمعوا من المال ما أصلحوا به ما انثلم من الصومعة المذكورة فيما حدثني به والدي والشيخ المعمر ابو زيد عبد الرحمان النيار موقت الجامع المذكور ومزوار مؤذنيها وكانت المجاشر محدقة بها من كل جهة كل مجشر بمزارعه وغراساته ومراعيه الى ان ظهر فساد السعيد بن عبد العزيز في أرض المغرب وذلك في العشرة الثانية من القرن التاسع فخلت المجاشر وانجلى عنها اهلها فيقال خلى من مجاشرها حينئذ اثنا عشر الف مجشر والبقاء لله وحده وكان زيتونها الذي تنسب اليه متصلا بها وبحاراتها من كل جهة وكانت له غلة عظيمة لاياتي عليها الحصر فلما ثار بها الشيخ اللحياني الورتاجنى وسام اهلها سوء العذاب وضبطها للحصار وعصبها بقائده ايوب بن يعقوب الشجاع الذي اربى بشجاعته وشهامته على عامل المرابطين

بها يدر ابن ولجوط الذي تقدم ذكره وملكها اللحياني المذكور نحو عشرين سنة وذلك في العشرة الثالثة والعشرة الرابعة من القرن التاسع فتوالت عليها الفتن بسبب ذلك وانقعر زيتونها قطعاً وأحداقاً واتسع الخرق على الراقع ولاحول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ثم تداركها الله سبحانه بدخول الامير ابى زكرياء الوطاسي وكان رضى الله تعلى عنه متمسكا بالدين محباً للخير مكرماً لاهله متخلقاً بالاخلاق الحميدة والشيم المرضية فأحسن الى اهلها وعفى عن اهل الجفاء منهم واسقط كثيراً من الوظائف الظلمية وجدد بها بعض الرسوم الدارسة وانشأ بجامعها المجلس المسمى بالاسبوع لكون القراء يجتمعون فيه لقراءة القرآن العزيز فى كل أسبوع وأمر بتحويل باب الحفاة الى قرب دار الوضوء الكبرى التى تقدم ذكرها ورأى ان ذلك أنسب من الباب الجوفي الذي كان قبل ذلك للحفاة كما تقدم فلما حفر الصناع في الباب الموالى لدار الوضوء المذكورة ليبنوا به مجرى الماء وجدوا ذلك هناك مبنياً بناء متقناً ولم يكن عند أحد به علم ولابقى من مسني المدينة من عنده من ذلك خبر فقضى الناس العجب من فطنة الامير المذكور رحمه الله تعلى. وكان بهذا البلد علماء اجلة فمن مشاهيرهم الشيخ الفقيه القاضي الصالح ابو عبد الله بن ورياش كان يدرس الموطا بالمدينة المذكورة ويملى عليه من المنتقى للباجى والاستذكار لابن عبد البر ويفتتح مجلسه بذكر الله تعلى وكان يتبرك به ويلتمس منه الدعاء وقبره هناك معروف بالموضع المسمى بمسيد الشجرة ومنهم الفقيه الشهير العالم العلامة حائز قصب السبق في المعقول والمنقول ابو عبد الله محمد بن ابى الفضل بن الصباغ رحمه الله تعلى وقد ذكره ابو عبد الله بن مرزوق الجد فى كتابه الذي صنف فى مناقب ابى الحسن المريني وذكره ابو زيد ابن خلدون فى كتاب العبر وذكره ابن الخطيب السلماني فى بعض فهارسه وكان من كبار العلماء الذين استصحبهم السلطان ابو الحسن المريني فى حركته الى افريقية كالفقيه الحافظ ابى عبد الله السطى والاستاذ الزواوي واجتمع هنالك بالامامين ابن عبد السلام وابن هارون شارحي ابن الحاجب وبالامامين ابي زيد وابى عيسى موسى ابني الامام التلمسانيين واخذ معهم فى العلم واعطى والله تعلى أعلم . وحدثني شيخنا الاستاذ السيد ابوالحسن علي بن منون الحسنى انه بلغه عنه انه املى فى مجلس درسه بمكناسة على قوله عليه السلام : ابا عمير مافعل النغير ، اربعمائة فائدة وكنت تاملت هذا الحديث فانقدح لي فيه

زهاء مائتين وخمسين من الفوائد فقيدت رسومها ولم اجد فراغاً لبسطها «ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها» وحدثني بعض اعيـان الاصحاب انه بلغه ان الفقيه ابن الصباغ المذكـور سمع بمقصورة تلمسان المحروسة ينشد كالمعاتب لنفسه

ياقلب كيف وقعت في اشراكهم ❊ ولقد عهدتك تحذر الاشراكا
أرضى بذل في هوى وصبـابة ❊ هذا لعمر الله قد أشقـاكا

ومات رحمه الله تعلى غريقاً فى اسطول أبي الحسن المرينى على ساحل تونس هو والفقيه السطي والاستاذ الزواوي وغير واحد فى نكبة ابى الحسن المعروفـة . ومن نظمه رحمه الله فى العلاقات المعتبرة في المجاز وفى المرجحات له

يا سائلا حصر العلاقـات التى ❊ وضع المجاز بها يسوغ ويجمل
خذها مرتبة وكل مقـابل ❊ حكم المقابل فيه حقـاً يحصل
عن ذكر ملزوم يعوض لازم ❊ وكـذا بعلته يعـاض معلل
وعن المعمم يستعاض مخصص ❊ وكذاك عن جزء ينوب المـكمل
وعن المحل ينوب ما قد حاله ❊ والحذف للتخفيف فيما يحمل
وعن المضاف اليه ناب مضافه ❊ والضد عن اضـداده يستعمل
والشبه فى صفة تبين وصورة ❊ ومن المقيد مطلق قـد يبدل
والشيء يسمى باسم ما قد كانه ❊ وكـذاك يسمى بالبديل المبدل
وضع المجاور فى مكانة جاره ❊ وبهذه حكم التعاكس يكمل
واجعل مكان الشيء آلته وجيء ❊ بمنكر قصر العموم فيحصل
ومعرف عن مطلق وبه انتهت ❊ ولجاهـا حكم التداخل يشمل
وبكثرة وبلاغة ولزومه ❊ لحقيقة رجحـانه يتحصل

ومنهم الفقية الحافظ أبو سالم ابراهيم بن عبد الـكريم الجروز النهم والفقيه ابو عبد الله القطراني قال شيخنا ابو عبد الله القوري انه بلغه ان أحدهما كان يستظهر كتاب ابن يونس والآخر يستظهر كـتاب تبصرة اللخمى ومنهم الفقيه المحصل الشريف الحاج المجاور ابو عبد الله محمد بن ابى البركات الحسنى رأيت له نظما بليغـاً فى علاقات المجاز ومنهم الجماعة الذين لقيهم أبو عبد الله بن الخطيب بها عام ٧٧١ احدي وسبعين وسبعمائة حسبما ذكر في رحلته المسماة بنفاضة الجراب ، فيمن بقى من

الاصحاب ، قال لما دخلها نزل بدار حافلة وأتت اليه القضاة والعدول والادباء والفضلاء فمنهم الشيخ الفقيه القاضى كان بها أبو محمد عبد الحق بن سعيد بن محمد كان من أهل المعرفة والفصاحة قائم على كتاب ابى عمرو بن الحاجب ممتاز به فيما دون تلمسان قرأه على الشيخين علمي الافق القبلي ابى موسى وابى زيد ابني الامام وتصدر لاقرائه الآن فما شئت من اضطلاع ومعرفة،وقيد جزءاً نبيلا على فتوى الامام ابى بكر بن العربى المسمى بالحاكمة سماه بالخارمة على الرسالة الحاكمة اجاد فيه وأحسن وقرأت عليه بعضه وأذن في تحمله. ومنهم الفقيه الفاضل الخير يونس بن عطية الوانشريسي له عناية بفروع الفقه وولى القضاء بقصر كتامة ، ومنهم الفقيه العدل أبو علي الحسن بن عثمان ابن عطية من أهل الحساب والقيام على الفرائض والعناية بفروع الفقه ومن ذوي السداجة والفضل ويقرض الشعر وله أرجوزة في الفرائض مبسوطة العبارة مستوفية المعنى ، ومنهم الفقيه العدل الخير أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي عفيف المتصدر لقراءة كتاب الشفا النبوي لديه جملة حسنة من أصول الفقه أشف بها على كثير من نظرائه قراءة منه اياها على أبى عبد الله محمد بن أبي الفضل بن الصباغ وشاركه في قراءتها على الامام أبى عبد الله الابلي ، ومنهم الفقيه المدرك الاستاذ في فن العربية أبو علي عمر بن عثمان الونشريسي حضرت مذاكرته فى مسألة أعوزت عليه وطال عنها سؤاله وهو قول الشاعر:

الناس أكيس من أن يمدحوا رجلا ❊ مالم يروا عنده ءاثار احسان

وصورة السؤال كيف صح وقوع أفعل بين شيئين لا اشتراك بينهما في الوصف اذا وقع الشاعر أكيس بين الناس وبين ان يمدحوا وهو مؤول بالمصدر وهو المدح ولا يوصف بذلك ومنهم الشيخ الفقيه العدل الاديب الاخباري المشارك أبو جعفر أحمد بن محمد بن ابراهيم الاوسى الجنان من أهل الظرف والانطباع والفضيلة كاتب عاقد ناظم ناثر مشارك فى فنون من العلم له تصنيف حسن فى ثلاثة أسفار اسمه المنهل المورود فى شرح المقصد المحمود شرح فيه وثائق ابن القاسم فأربى على الاجادة بيانا وافادة وناولني اياه واذن في حمله عنه وأنشدني كثيراً من شعره ، فمن ذلك ماصدر به رسالة يهني بها ناقهاً من مرض

البس الصحة برداً قشيبا ❊ وارشف النعمة ثغراً شنيبا

واقطف الامال زهراً نظيراً ❀ واعطف الاقبال غصناً رطيبا
ان يكن ساءك وعد تقضى ❀ تجد الاجر عظيما رحيبا
فانتعش دهرك ذا في سرور ❀ يصبح الحاسد منه كئيبا

قال وقرأت بالدور الحشبي بالدار الذي نزلت بها أبياتا متنقشة استحسنتها لسهولتها فأخبرني أنها من نظمه وهي

انظر الى منزل اذا نظرت ❀ عيناك يعجبك كل مافيه
ينبيء عن رفعة لمالكه ❀ وعن ذكاء الحجا لبانيه
يناسب الوشي في أسافله ❀ ما يرقم النقش في أعاليه
كأنه روضة مدبجة ❀ جاد لها وابل بما فيه
فأظهرت للعيون زخرفها ❀ وأوقفتها على تجليه
فهو على بهجة تلوح به ❀ ورونق للجمال يبديه
يشهد للساكنين ان لهم ❀ من جنة الخلد ما يحاكيه

في ابيات اخر قال وفاتحته مجر كا قريحته ومستثيراً ماعنده بقولي:

ان كانت الآداب أضحت جنة ❀ فلقد غدا جنانها الجنان
أقلامه القضب اللذان بدوحها ❀ والزهر مارقته منه بنان

وذكر ابن الخطيب بعد البيتين سجعاً بليغاً ثم قال فراجعني الجنان بما نصه:

ياخاطب الآداب مهلا فقد ❀ ردك عن خطبتها ابن الخطيب
هل غيره في الارض كفؤلها ❀ وشرطها الكفوءة قول مصيب
أصبح للشرط بها معرساً ❀ فاستفت في الفسخ فهل من مجيب

أيها السيد الذي يتنافس في لقائه ويتغالى، ويصادم بولائه صرف الزمان ويعالى، وتستنتج نتائج الشرف بمقدمات عرفانه، وتقتنص شوارد العلوم برواية كلامه، فكيف بمدانات عيانه، جلوت علي من بنات فكرك عقائل نواهد، وأقمت بها على معارفك الجمة دلائل وشواهد، واقتنصت بشرك بديهتك من المعالي أوابد شوارد، وفجرت من بلاغتك ويراعتك حياضاً عذبة الموارد، ثم كلفتني من اجراء ضالعي في ميدان ضليعها، مقابلة الشمس النيرة بسراج عند طلوعها، فأخلدت اخلاد مهيض الجناح، وفررت فرار الاعزل عن شاكي السلاح، وعلمت أنني ان أخذت نفسي بالمقابلة، وأدليت دلو

قريحتي للمساجلة ، كنت كمن كلف الايام مراجعة أمسها ، أوطلب ممن علته السماء محاولة لمسها، وان رضيت من القريحة بسجيتها، وأظهرت القدر الذي كنت استمحت من ركيتها، أصبحت مسخرة للراوين والسامعين، ونبت عن اسمي دواوينهم كما تنبوا عن الاشيب عيون العين، ثم ان أمرك ياسيدي لا يحل وثيق مبرمه، ولا يحل نسخ محكمه، فامتثله امتثال من لم يجد في نفسه حرجاً من قضائك، ورجوت حسن تجاوزك واغضائك، أبقاك الله قطباً لفلك المكارم والمئاثر، وفضاً لخاتم المحامد والمفاخر، والسلام. قال ومنهم القاضي بها الشيخ الفقيه الخير أبو عبد الله محمد بن علي بن أبي رمانة شيخ فاضل من أهل الحياء والخشية وذوي السداجة والعفة ذاعبته وقد تاخر عني يوم وصولي بما تقرر عذره وعفا على عتبه الاعتاب فقلت:

جفا ابن أبي رمانة وجه مقدمي ❊ ونكب عني معرضاً وتحامان
وحجب عني حبه غير جاهل ❊ باني ضيف والمبرة من شان
ولكن دراني مغربياً محققاً ❊ وان طعامي لم يكن حب رمان

وذكر بعده نثراً بديعاً يوقف عليه في محله انتهى. فأما الجنان هذا فليس هو من بني الجنان المشهورين هنالك وهم أخوالي وقد أدركت ابنته لصلبه ام الحياء عجوزاً عمياء ، وأما أبو عبد الله محمد بن أبي عفيف فهو جدي أبو ام امي رحمهم الله تعلى وأما أبو محمد بن سعيد بن محمد المكلاتي فقد كان شيخنا الفقيه الحافظ أبو عبد الله القوري يحكي ان السلطان أبا عنان استقدمه من مكناسة فقدم عليه ومعه أتباعه وأعوانه فلما بلغ باب المشور بالبلد الجديد تركهم مع بغلته ودخل على السلطان فعزله من خطة القضاء بسبب عدم مبالاته به في تنفيذ الحق فخرج فوجدهم فروا عن بغلته ثم بدا للسلطان من وقته فاسترجعه واستعطفه وأعاده لخطته فلما خرج وجدهم دائرين بالبغلة وهذا شأن الناس كما قيل

الناس أعوان من واتته دولته ❊ وهم عليه اذا خانته أعوان

ومنهم الزغابشة وقد انتقل بعضهم لعدوة الاندلس وبعضهم لمراكش وقد ذكر ابن عبد الملك في تكملته جماعة منهم ومن قدمائها منهم أبو العباس أحمد بن محمد بن حماد الممتحن مع قرابته السبعة كما تقدم كان فقيهاً حافظاً لكتاب الله تعلى كثير التلاوة له متديناً ماهراً مع ذلك في معرفة الهيئة والتعديل عمي ءاخر عمره فلما كان

عند الموت تلا « فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » فحدث الحاضرون أن الله تعلى رد عليه بصره قال حفيد أخيه أبو الخطاب فلا أدري أنص لهم على ذلك أم استدلوا بالتلاوة ومنهم ابنه قاضيها أبو الحسن ومنهم صهره أبو اسحاق بن أبي حافة ومنهم العبادسة المشار اليهم فيما تقدم ومنهم ابو علي الونشريسي الاكبر عم ابى علي الأصغر المتقدم الذكر ومنهم ابو علي الونشريسي الاكبر ومنهم بنو العافية ومنهم بنو جابر والفليونيون وبنو اركاز ومنهم بنو عبد المنان ومما اشتهر من الحكاية عن بعضهم وهو والله اعلم ابو العباس احمد بن يحيي بن عبد المنان انه عرض له الشيطان فيما بين فاس ومكناسة فقال

اكلتم السابح فى لجه ❀ ولم تفلتوا ذوات الجناح
هذا وقد عرضتم للفنا ❀ فكيف لو خلدتم يا وقاح

فأجابه ابن عبد المنان ارتجالا

بالعقل قد فضلنا ربنا ❀ وسخر الفلك لنا والرياح
والحوت والطير متاع لنا ❀ فما لنا عليهما من جناح

ومنهم بنو الصباغ وبنو العريف وبنو خالد ومنهم ابو الحسن بن حبق وقد حدثني الشيخ المعمر أبو زيد عبد الرحمان النيار مزوار المؤذنين بجامعها الاعظم ان ابن حبق هذا ريء فى المنام بعد موته فسئل عما لقى من الله سبحانه فأنشد

حسبوا على وقيدوا ❀ فعل القبيح مع الحسن
ورأيت امراً هائلا ❀ حتى لعمرى كدت ان
وعفوا وذلك شأنهم ❀ لله در ابي الحسن

وانشدني شيخنا ابو الحسن علي بن منون الحسنى لابن حبق المذكور

عبد من الحسنات اصبح مفلساً ❀ وبضدها ثوب الديانة دنسا
يمسي ويصبح للخطايا كاسباً ❀ لم ينهه مر الصباح ولا المسا

يعاتب نفسه رحمه الله. وممن سكنها الاستاذ ابو العباس الغماري كان شديد الحفظ للقرآن العزيز يسأل عما قبل الآية فيجيب مسرعاً وكان استاذ الاقراء واستاذ الغناء وكان له تلامذة يحسنون الصناعتين ومنهم قاضيها ابو المطرف بن عميرة وقد ذكره ابن الخطيب فى الاحاطة ومنهم ابن عبدون حائز قصب السباق فى الشعر والكتابة

ومنهم خطيبها ابو محمد عبد الله بن عون حدثني شيخنا ابو العباس احمد بن سعيد الخطيب ان السلطان اباعنان لما ان سمع جزالته في خطبته قال لبعض خواصه: أهنا هذا؟ اعجابا به ومنهم خطيبها ابن عبدالله ومنهم ابن حرزوز ومنهم مؤلف زهر الآكام كان يسكن بدرب النخلة على مقربة من دار الدباغ وممن سكنها واستوطنها ولي الله تعلى الشيخ الصالح العارف الورع الرباني ابو العباس سيدي احمد بن عاشر ومسجده بها معروف ومنها انتقل لسلاوفيه يقول ابن الخطيب في قصيدته العينية السلوية التى وجهها الى سلا ايام خلف بها اهله وولده

بولي الله فابدأ وابتدر ✿ واحد الآحاد في باب الورع

ومنهم الفقية ابو موسى عمران الجاناتي شيخ شيوخنا وكان قد قيد على المدونة عن شيخه ابى عمران موسى العبدوسي تقيداً لاباس به وهو الآن بجامع الاندلس من فاس كلاها الله تعلى. ومنهم الاستاذ المقريء الشاعر المجيد المحسن شيخ شيوخنا ابو عبد الله محمد بن جابر الغساني ذو التصانيف الحسان والقصائد العجيبة وله تسميط البردة النبوية للامام ابى عبد الله البوصيري ونظم المرقبة العليا في تعبير الرؤيا ببلدة مكناسة رجز بديع سماه بنزهة الناظر لابن جابر. ومنهم الشيخ الصالح الزاهد المتواضع حسن الاخلاق ابو محمد عبد الله بن احمد المتبرك به حياً وميتاً له بيت حسب بفاس كان ارتحل منها المشرق فحج ولقى الاخيار من المشايخ فأشار اليه بعضهم فيما يقال باستيطان مكناسة فاستوطنها حتى توفي بها وله مناقب كثيرة رضى الله تعلى عنه . ومنهم ابو زكرياء الصبان الشيخ الصالح المدفون بابي سهل ومنهم الشيخ ابو زكرياء ان ترحالين يقال سماه البربر بذلك لشجرات امرها بالارتحال من منابتها فارتحلت والله تعلى اعلم وهو الشيخ الصالح المدفون بوادي السكلي. ومنهم شيخ شيوخنا ابو عبدالله محمد بن عمر بن الفتوح اصله من مدينة تلمسان فانتقل الى فاس ثم الى مكناسة فأقام بها حتى مات هنالك رحمه الله تعلى حدثني شيخنا ابو زيد عبد الرحمان القرموني وكان قد ارتحل اليه من فاس والى رفيقه في العبادة ابى محمد عبد الله بن احمد المذكور فأقام يخدمهما بمدينة مكناسة تسعة اعوام ومن ثم كانت معرفته بوالدي رحمه الله تعلى ان السبب في انقطاعه للعبادة وزهده في الدنيا انه كان في ايام شبيبته حسن المنظر نظيف الثياب وكان من نجباء طلبة العلم فمرت به أمرأة فجعل يسرق النظر اليها فقالت له اتق الله يا ابن الفتوح

«يعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور» فنفعه الله بكلامها ولما انتقل من تلمسان الى فاس اخذ الفقه عن شيخ الجماعة ابى موسى عيسى بن علال المصمودي وكان يقرأ ألفية ابن مالك بالمدرسة المتوكلية ويقيم أوده بالجامكية المرتبة عليها ثم عرضت عليه رياسة التدريس للفقه بمدرسة العطارين فاستخار الله تعلى فرأى في المنام عجوزاً شمطاء سيقت له في عمارية بانواع الملاهى فعلم انها الدنيا فلم يقبلها وكان يضيق ذرعه من مخالطة من لا يحفظ لسانه عن الغيبة وغيرها من كلام الهجر ويتمنى لو وجد رفقاء يعينونه على الخير فدله بعض الناصحين على الشيخ الصالح ابى محمد عبد الله بن حمد واصحابه فارتحل اليه بمدينة مكناسة فظفر ببغيته وصار كما قيل : (وافق شن طبقه وافقه فاعتنقه) وحدثني والدي رحمه الله انه كان يراه يقعد الى المساجد الخالية ويعمرها بقراءة القرآن العزيز وحدثني ابو زيد المزوار انه أول من ادخل مختصر خليل لهذه البلاد عام خمسة من القرن التاسع وانه اصابه الطاعون وهو يقرأ البخاري بالجامع الاعظم من مكناسة عند خزانة الكتب وذلك عام ثمانية عشر من القرن المذكور فحمل الى بيته بالمدرسة الجديدة فلما كان عند الموت لقنه بعض الناس فقال له: الشغل بالذكر عن المذكور غفلة، وحدثني شيخنا الفقيه العلامة ابو عبد الله القوري انه كان يقول سبب ارتحالى لفاس في طلب الفقه مسألتان سئلنا عنها فلم يحضرنا جواباً مع شهرتها مسئلة المكثر من المنذور وهى في كتاب الايمان والنذور من المدونة، ومسئلة: من اشترى جارية فشرط انها ثيب فالفاها بكراً - ماحضر اصحابنا فيها شىء غير انهم قالوا هذا كمن تلف له قب ووجد حماماً وهى منصوصة في نوازل ابن سهل انه ان شرط ذلك لغرض كما اذا كان شيخاً كبيراً لا يطيق الافتراع او كان حلف الا يطأ بكراً او أن لا يملكها فله ردها والا فلا ، وحدثني شيخنا ابو عبد الله القوري ايضاً انه لما كان بمكناسة فرضت احدى يديه فلم يتمكن له مسح اذنيه الا باليد الصحيحة فلما مسح بها اليمنى وأراد ان ينقلها لمسح اليسرى اشكل عليه الامر فى استيناف الماء فلم يذكر فيه نصاً فاحتاط وجدد وكان بينه وبين شيخ الجماعة ابى محمد عبد الله العبدوسي ود واخاء وكان كل منهما يفيد صاحبه فكتب اليه يخبره بما نزل به وبما فعل وهل يذكر فيها نصاً فأجابه لا اذكر فيها شيئاً ولو نزل بي مثل ذلك لفعلت فعلك، ومنهم شيخ شيوخنا الفقيه الزاهد الرباني المربي ابو عبد الله محمد بن سعيد الحباك العفجيسي اخو

شيخنا الخطيب ابي العباس بن سعيد وشيخه كان والله تعلى اعلم في مقـام الجلال لان الغالب عليه القبض وكان معاصره الشيخ ابو محمد بن محمد المذكور في مقام الجمال لان الغالب عليه البسط والله سبحانه أعلم ومنهم شيخ شيوخنا ابو عيسى مرسى بن الحاج كان اماماً في علم العربية يقوم على تسهيل ابن مالك ويقرر ألفيته بجامعها الاعظم تقريراً حسناً وكثيراً ماينشد متمثلا :

خلت الديار فسدت غير مسود ❁ ومن الشقـاء تفردي بالسودد

حدثني بذلك عنه الشيخ المعمر ابو عبد الله بن الاستاذ بن جابر المذكور. ومنهم الشيخ الذكي المتفنن الحجة الحاج ابو عبد الله محمد بن عزوز الصنهاجي جود القرآن العزيز على الاستاذ ابن جابر المذكور وحفظ الحديث والتـاريخ ونفـع في الطلب وارتحل الى المشرق ولقي به جماعة من الاعلام وأخذ منهم كالامام العلامة أبي عبد الله بن مرزوق الحفيد وغيره ورجع الى بلده مكناسة وانتفع به شيخنا أبو عبد الله القوري كثيراً وحدثني عنه انه نزل ببعض المشارقة فقدم له طعاماً عندهم يقال الباذنجان فلم يصب منه كبير شيء فقال ما لك لا تاكل فقال انه لم يكن بارض قومي فـأجدني اعافه كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في حديث الضب فعلم انه من أهل الحديث فبالغ في اكرامه وحدثني عنه انه سمع الامام الرباني ابا عبد الله البلالي الذي اختصر الاحياء للامام أبي حامد الغزالي يقول الحديث الذي جاء فيه: الباذنجان لما اكل له، اصح من الحديث الذي جاء فيه: ماء زمزم لما شرب له، او قال هو امتن منه سنداً او كما قال، قال شيخنا ابو عبد الله القوري وهذا خلاف المعروف ثم أعـاد الرحلة الى بلاد المشرق فمات هنالك رحمة الله عليه، ثم تزوج زوجه رحمة بنت الجنان رحمة الله عليهما فهي امي والحاج المذكور والد اخوتي لامي وقد كانت امي حفظت منه حديثـاً كثيراً من الصحاح وكادت ان تحيط حفظاً بالادعية الواردة في الصحاح فحفظت منها كثيراً في ايام الصغر فلم اتعب في حفظه بعد الكبر ولله الحمد وكانت رحمهـا الله تعلى ملازمة لدرس القرآن العزيز في المصحف وكان علمها كثيراً من تفسير قصصه وأخبـاره فنفعتنا بذلك في الصغر غاية برد الله تعلى ضريحها، وحدثني عنه بحكايات وفوائد يطول جلبها وكان مع ذلك جيد القريحة في الشعر، حدثني الشيخ المعمر أبو عبد الله بن الاستاذ بن جابر قال خرج أبي مرة بتلامذته لينزههم بعرصة كانت له بوادي أبي

وكان اذا أراد لقاء الشيخ محمد بن عبد الله بن واجاج تلقاه بالبحيرة التي تولى غراستها في ذلك التاريخ كما تقدم وكان ببلده مكرماً وجيهاً يزوره قضاته وطلبته واعيانه ، وأما القاسم ابنه فولى القضاء بجهات المغرب وبجهات غرناطة ثم انقبض عن ذلك واقتصر على الفلاحة ببلدة تاورا اوفر ما كانوا عددا وثروة ومعهم السودان المسمون هنالك عبيد الحرمة رجال السودان يلعبون الثقاف بالحديد ويرقصون ونسائهم يضربن ءالة اللعب ويغنين والزامر يزمر عليهم بابي قرون وكانت هذه المناكير من عوائدهم في افراحهم واقام بتاورا حتى مات رحمه الله تعلى ، وأما ابنه ابو الخطاب سهل الذي نقلنا من تقييده فذكر انه ولد بوادي ءاش وارتحل به ابوه الى تاورا ثم ارتحل هو بعد موت ابيه هناك الى الاندلس ءاخر سنة ست عشرة وستمائة وذلك لما توالت اسباب الخراب على تاورا وغيرها من الجوائر فولى بالاندلس قضاء اماكن كثيرة مرة في رندة ومرة في ءاسجة ومرة في غيرها وولى مرة قضاء طنجة ثم قدم آخذاً مسدداً بمرسية والبقاء لله وحده وأظن أني وقفت في بعض التواريخ على ان بنى عبد وس من جملة قرى مكناسة كبنى برنوس والمفهوم من ذلك ان اهلها من جملة قبائل مكناسة واليهم ينسب العبادسة من بنى معطى اعقاب الشيخ الفقيه المشاور المدرس أبي عمران موسى العبدوسى فمنهم ولده الفقيه المحدث الحافظ ابوالقاسم وولده ايضاً الفقيه أبو عبد الله وحفيده الفقيه المحدث الحجة شيخ شيوخنا ابو محمد عبد الله بن محمد ابن موسى بن معطى العبدوسي وهم بيت كبير من بيوت العلم اقام فيهم العلم ورياسته دهراً طويلا حتى في نسائهم وءاخر علمائهم ام هاني العبدوسية اخت ابى محمد المذكور ولما ظهر بنو مرين وشنوا الغارات على بسائط المغرب واختل امر الموحدين كان من ثورة على ابن العافية بمدينة مكناسة وقيامه على عامل الموحدين وتمكينه البلد من بنى مرين ثم فرارهم عنها ورجوع الموحدين اليها واعتصام علي ابن العافية بالقلوع من جبل زرهون وخروج خطيبها الشيخ الصالح المتبرك به ابي علي منصور بن حرزوز مع صبيان المكاتب بالواحهم على رؤوسهم شفعاء لاهل بلدهم عند سلطان الموحدين لما قدم عليهم وقبول شفاعتهم ما هو معروف ثم ازداد امر الموحدين ضعفاً وعلا أمر بنى مرين فعادت اليهم مدينة مكناسة وذكر ابن خلدون ان امير بني مرين امر اهل مكناسة حينئذ ان يوجهوا ببيعتهم الى الحفصى سلطان تونس فوجهوها اليه

عمار واغفل تلميذه ابا عبد الله بن عزوز فلم يدعه فيهم فقال يعاتبه في ذلك

ليت شعري وذاك ليس بمغني ❁ ما يرد الفوات حرف تمني
اي ذنب قرفته ياعمادي ❁ فحرمنا من قربكم قرب عدني
ومنحنا الاعراض اذ عرض النا ❁ س فاعظم بذلك الذنب مني
وهب الذنب فيه يعظم هلا ❁ منكم كان حسن عفو وظني

في ابيات كثيرة فأجابه الاستاذ بقصيدة علق بحفظي منها :

يابديعاً فاق البديع بنظم ❁ في عروض من الخفيف ووزن

يعني بديع الزمان وعلامة همدان . وكان له صديق من بني العافية يقال له يحيى وهو اخو الفقيه القاضي ابي العز فمرض فكواه طبيب كان هنالك يقال له ابن سالم فمات فرثاه بقصيدة رائية يقول فيها معرضاً بقتل الطبيب اياه بالكي :

ولقد كوى قلبي فراقك كية ❁ كادت تكون كما كواك المحور

ومنهم شيخ شيوخنا الفقيه الخير الناصح ابو عبد الله محمد بن العافية المعروف بالاحول كان عيبة نصح لشيخنا القوري انتفع به كثيراً وله موضوع في المسائل الواقعة في المدونة في غير مواضعها وقد كان ابوه ابو العباس احمد قاضياً بالمدينة المذكورة فلما عرضت عليه الخطة بعد ابيه زهد فيها وهو اخو ابي العز ويحيي المذكورين فوق هذا. ومنهم الفقيه ابو الحسن علي بن عمر وقد تقدم ذكر ابي الحسن التلاجدوتي . ومنهم الفقيه المشاور المفتي الحجة ابو القاسم بن حبيب الحريشي كان ابو محمد عبد الله العبدوسي يثني عليه في مجلسه وقد ادركته بالسن فقط . ومنهم الفقيه العدل المعروف بابن سعدون . وممن ادركت منهم الفقيه الاستاذ القاضي ابو عبد الله الغرناطي والقاضي الاعدل الثبت ابو عبد الله بن اخضري والشيخ المعمر العدل الاديب المجيد الشاعر المفلق ابو زيد عبد الرحمن بن ثابت وقد كان في اسلافه من ولي قضاء المدينة المذكورة فيما اخبرني به شيخنا القوزي رحمه الله حدثني ابن ثابت المذكور انه كانت بينه وبين جدي للام ابي زيد عبد الرحمن بن الجنان رحمه الله تعلى صداقة فكان من حسن عهده يراعي في ذلك على صغر سني وحدثني بمنافسة كانت بينه وبين الاستاذ ابي عبد الله بن جابر بسبب القصيدة اللامية النبوية التي قالها في ايام المولد ومطلعها :

ألا حي الديار ديار ليلى ❁ ومر بها اذا ادلجت ليلا

ومهمـا جئت مغناها سحيرا ❀ فجرر للتحية فيه ذيلا

وهي قصيدة كبيرة عجيبة مشهورة عندهم وقال له ابو محمد عبد الله العبدوسي ذات يوم وقد رءاه قوس اوكاد : لا تنحن ياشيخ لا تنحن . فقال مجيباً له بديهة :

يا سليل الكرام نفسي فداكا ❀ قلت لاتنحني وأنت كذاك

خفض الظهر فاعل الدهر منا ❀ مع حال عدمت منها انفكاكا

ختم الله للجميـع بخير ❀ انه قادر على فعل ذاكا

ومنهم الفقيه العدل الارضى أبو محمد عبد الله بن العريف كان مجتهداً في طلب العلم ورحل بسببه لفاس وروى عن الاستاذ ابى زيد الحادري مقصورة شيخه ابى زيد المكودي التي مطلعها

ارقني بارق نجد اذ سرى ❀ يومض ما بين فرادى وثنا

اهبني اذ هب منه موهناً ❀ ما سـد مابين الثريا والثرى

فياله من بارق ذكرني ❀ من الهوى ما كنت عنه في غنى

اثار شوقاً كان مني كامناً ❀ بين ضلوعي طال مافيها ثوى

وروى عنه وعن غيره غيرها وظهرت نجابته الا انه اخترمته المنية في صغره كما اتفق لمعاصره ابي الفضل ان الجراد بمدينة سلا وكان أمر الله قدراً مقدوراً ولم أدرك هذا الفاضل وقد كانت بيننا وبين نجله الفقيه القاضي الارضى الاعدل ابى عبد الله محبة ومواخاة وكان له حسن عهد ما رأيته لغيره رحمه الله تعلى وممن ادركته وزرته الشيخ الصالح الملامتي ذو المكاشفات التي لا تحصى والبركات التي لا تستقصى أبو يوسف يعقوب المعروف بابي فقف تواترت كراماته عند الخاصة والعامة من اهل مكناسة وفاس وغيرهما وفي حفظي منهـا مالو دونته لخرج في كراريس والله تعلى اعلم وكفى بمـا ظهر عند موته كرامة وبركة وذلك انه لمـا احتمل الى قبره خـارج باب البراذعيين منهـا اتبعته طير بيض ماريئت الا في ذلك الوقت فكانت ترفرف على نعشه حتى ادخل قبره رضى الله تعلى عنه ورءا ذلك كل من شهد جنازته من الرجـال ومن النساء وقد خرج اهل المدينة كلهم الامن شذ ولم اكن هنالك يومئذ وكنت اقرأ في فـاس ولو تتبعنـا من كان فيها من الاعيان والسادات ماطمعنا بالاحـاطة بعشر عشره وقد كنت اردت ان اجمع من امكن منهم مرتبين على حروف المعجم فجمعت منهم جملة صالحة

ثم خمدت القريحة عن ذلك وجمدت الطبيعة وعاقت العوائق وشط المزار وعادت عوائد بيننا وخطوب ومـا برز من الغيب فهو المختار وربك يخلق ما يشاء ويختار ولو لم يكن من مفاخر مدينة مكناسة الا اشتمال عملها على مدفن ولي الله تعلى المجمع عليه شيخ المشائخ سيدي أبي يعزى لـكان كافياً وقد ذكرت في الفهرسة الموسومة بالتعلل برسوم الاسناد بعد انتقال أهل المنزل والناد بعض من لقيت بها كالشيخ الفقيه المتفنن أبي زيد عبد الرحمان الـكاواني والشيخ الاستاذ أبي الحسن بن منون الحسنى والشيخ الخطيب الاحفل ابي العباس احمد بن سعيد الغفجيسي كما ذكرت هناك شيخنا العلامة أبا عبد الله القوزي فيمن لقيت بمدينة فاس كلاها الله تعلى وكان هذان الشيخان قد ارتحلا من مكناسة الى فاس وسبب ارتحالهما مشهور عند النـاس فلنقبض عنه العنـان والله تعلى المستعان وقد رأيت ان اختم هذا المجموع بمـا ذكر أبو عبد الله بن الخطيب في رحلته المسماة بنفاضة الجراب فيمن بقي من الاصحاب لما عرف بهذه المدينة قال وأطلت مدينة مكناسة في مظهر المجد رافلة في حلة الروح مبتسمة عن شنب المياه العذبة سافرة عن اجمل المرءى، قد احكم وضعها الذي اخرج المرعى، قيد البصر وفذلكة الحسن فنزلنا بها منزلا لا يستطيع العين ان تخلفه حسناً ووضعـاً من بلد دارت به المجـاشر المعلقة والتفت بسوره الزياتين المفيدة وراق بخارجه السلطان المستخلص الذي يسمو اليه الطرف رحب ساحته والتفاف شجره ونباهة تبينه واشراف ربوه ومثلت بازائها الزاوية القدمى المعدة للوارد ذات البركة النامية والمأذنة السامية والمرافق المتيسرة يصاقبها الجنـان البديـع المنصب الحصين الغلق الغاص بالسابلة والجوابة في الارض يبتغون من فضل الله، تقابلها غربا الزاوية الحديثة المربية برونق الشبيبة ومزية الجدة والانفساح وتفنن الاحتفـال ه والزاويتان معاً من بناء امير المسلمين ابي الحسن المريني جدد الله تعلى عليه رحمته بفضله الا ان الاولى بناها في دولة ابيه والثانية بناها بعد استقلاله بالدولة ثم قـال ابن الخطيب وبداخلها مدارس ثلاث لبث العلم كلفت به الملوك الجلة الهمم واخذها التنجيد فجاءت فائقة الحسن ماشئت من ابواب نحاسية وبرك فياضة تقذف فيها صابي المـاء اعناق أسدية وفيها خزائن الـكتب والجراية الدارة على العلماء والمتعلمين وتفضل هذه المدينة كثيراً من لداتهـا بصحة الهواء وتبحر أصناف الفواكه وتعمير الخزين ومداومة البر لجوار ترابها سليما من الفساد معافى من العفن اذ تقام ساحات منازلها غالبـاً على

اطباق الآلاف من الاقوات تتناقلها المواريث ويصاحبها التعمير وتتجافى عنها الارض ومحاسن هذه البلدة المباركة جمة قال ابن عبدون من اهلها ولله دره :

ان تفتخر فاس بما في طيها ❊ وبأنها في زيها حسناء
يكفيك من مكناسة ارجاؤها ❊ والاطيبان هواؤها والماء

وبهامتها شرقاً جبل زرهون المتفجر العيون الظاهر البركة المتزاحم العمران الكثير الزياتين والاشجار قد جلله الله سكراً ورزقاً حسناً فهو عنصر الخير ومادة المجبى وفى المدينة دور نبيهة وبنى اصيلة والله تعلى ولى من اشتملت عليه بقدرته وفيها أقول

بالحسن من مكناسة الزيتون ❊ قد صح عذر الناظر المفتون (١)
فضل الهواء وصحة الماء الذي ❊ يجرى بها وسلامة المخزون
سحت عليها كل عين ثرة ❊ للمزن هامية الغمام هتون
فاحمر خد الورد بين اباطح ❊ وافتر ثغر الزهر فوق غصون
ولقد كفاها شاهداً مهما ادعت ❊ قصب السباق القرب من زرهون
جبل تضاحكت البروق بجوه ❊ فبكت عذاب مياهه بعيون
وكانما هو بربرى نافذ ❊ فى لوحه والتين والزيتون
حييت من بلد خصيب ارضه ❊ مثوى امان او مناخ امون
وضفت عليك من الالاء عناية ❊ تكسوك ثوبي امنة وسكون

انتهى ماقصدنا نقله من نفاضة الجراب ولم اكن وقفت عليها حين ابتدأت هذا المجموع فلذلك اقتصرت في صدره على الخمسة الابيات التي علقت بحفظي من هذه القصيدة وقال في ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب مكناسة مدينة أصيلة وشعب للمحاسن وفصيلة فضلها الله تعلى ورعاها واخرج منها ماءها ومرعاها فجانبها مريع وخيرها سريع ووضعها له في فقه الفضائل تفريع عدل فيها الزمان وانسدل الامان وفاقت

---

(١) قال كاتبه سامحه الله وجدت بطرة هذه الابيات بيتين لبعض الادباء بتاريخ ١١٢٥ وهما

لله درك لو رأيت زماننا ❊ ما صح عذر الناظر المفتون
فسد الهوى واتاح كل بلية ❊ ومضرة بسلامة المخزون

نسأل الله اللطف

الفواكه فواكهها ولا سيما الرمان وحفظ أقواتها الاختزان ولطفت فيها الاواني والكيزان ودنا من الحضرة جوارها فكثر قصادها من الوزراء وزوارها وبها المدارس والفقهـا ولقصبتها الابهة والبها والمقاصير والابها اه قال المؤلف محمد بن احمد بن محمد بن محمد ابن غازي العثماني منسوبا لابي عثمان وهو من قبيلة كتامة حسبما ذكر ابن خلدون في كتاب العبر نشات بهذه المدينة كما نشأبها اسلافي وقرأت بها ثم ارتحلت الى مدينة فاس فى طلب العلم أظنه سنة ثمان وخمسين وثمانمائة فأقمت بها ماشاء الله تعلى ولقيت من الاشياخ بالمدينتين جماعة ذكرت مشاهرهم في الفهرسة التي سميتها بـ«التعلل برسوم الاسناد بعد انتقال اهل المنزل والناد» ثم عدت الى مدينة مكناسة فأقمت بها بين اهلى وعشيرتي زمانا ثم انتقلت الى مدينة فاس كلا ها الله تعلى فاستوطنتها

وكان ماكان مما لست اذكره ❁ فظن خيراً ولا تسئل عن الخبر

وانما الدنيا قنطرة للعباد يعبرون عليها ليوم المعاد

وما المرء الا كالشهاب وضوئه ❁ يحور رماداً بعد ماهو ساطـع

وما المـال والاهلون الاوديعة ❁ ولابد من يوم ترد الودائع

والله سبحانه يختم لنا ولكم بالحسنى ويجمعنا وإياكم في المقر ألاسنى بجاه سيدنا ونبينا ومولانا محمد خاتم النبيئين وامام المرسلين صلى الله وسلم عليه وعلى ءاله وأصحابه الطيبين الطاهرين وءاخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين

الحمد لله ـ خرج المؤلف رحمه الله في ءاخر عمره لقصر كتامه المذكور بقصد الحراسة فالم به مرض فئاب لفاس واستمر مرضه الى ان توفى بها اثر صلاة الظهر من يوم الاربعاء تاسع جمدى الاولى سنة تسع عشرة وتسعمائة وصلى عليه ولده أبو العباس سيدي احمد بالمقابر بالكغادين الموضـع المعروف داخل باب الفتوح عدوة فاس الاندلس صبيحة يوم الخميس التالى له واحتفل الناس لحضور جنازته احتفالا عظيما حضرها السلطان ووجوه دولته فمن دونه وأتبعوه ذكراً حسناً وثناء جميلا وتاسفوا لفقده اسفـاً عظيما رحمه الله ورضى عنه ونفع به اه من خط تلميذه سيدي عبد الواحد الونشريسى رحمه الله بواسطتين